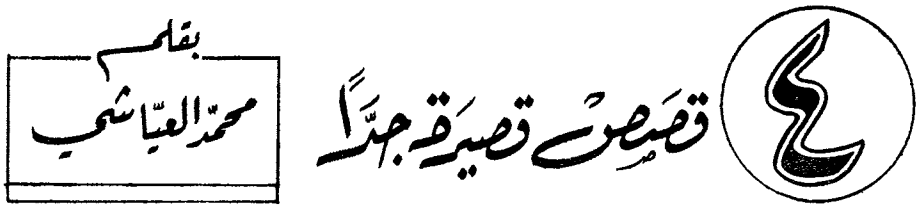

١ ــ الاعمى

تصير الشمس درهما فضيا ، لكن الاعمى لا يبصرها، يمد يده اليها ، يتحسس الشعاع ، يصادف الهواء ،يمسكه يتبعه ، تسبقه عصاه ، يمضي ولا يقف ، حين يقف تكون العصا قد توقفت عند الحائط ، حائط المسجد الذي لا يتزحزح والذي لا يزال صلبا وممتدا طولا وعرضا .

الاعمى يقعد ، يسند ظهره الى حائط المسجد ، يحضن عصاه ، يشرع في تلاوة آيات من قرآنه .

الاعمى يحفظ القرآن كله ، لكنه لا يتلو منه الا آيات بعينها ، مكتفيا بها دون غيرها ، سألوه يوما : ما لك تكرر سورا بعينها ؟ سألهم : ما الفائدة ما دامت النتيجة واحدة ؟!.. تركوه بعد أن نعتوه بقلة الحياء ورقة الدين ودعوا له بالهداية . عادوا فسألوه يوما آخر : ما لك صرت تختصر السور اختصارا وتقتصر على آيات الفزع والهلع !؟ اجابهم:ما الفائدة من آيات لا تدخل قلوب الاحياء بله الاموات !؟

تركوه ثانية بعد ان وصفوه بالكفر والزندقة ، وكادوا ان يتفقوا في حبسه بمكان سحيق لولا انهم رأوه اعمى وليس لأعمى من عقاب كالعمى الذي هو فيه ، وتمنوا ان يفتح الله بصيرته .

بقي الاعمى يتلو آياته لا يمد يده الى احد ، ولا يعبأ بأحد ، يمر به القوم يحاولون الا يعبأوا به فلايستطيعون، يحاولون أن يقنعوا نفوسهم بأن الامر هين فيشكون ويعتقدون ان وراء مسلك الاعمى سرا لا يباح به ، فلم يلبثوا ان عادوا اليه للمرة الثالثة يسألونه : لقد بالغت .. هل تخفي علينا سرا !!

أجابهم : هل تخفون انتم سرا ! تركوه غاضبين بعد ان هموا بضربه واوشكوا ان يتضاربوا ثم لم يتفقوا الا على مقاطعته .

الاعمى يتلو آياته لا يمد يده الى احد ، ولا يعبأ بأحد ، يمر به الناس يتظاهرون بالاستهزاء والاستخفاف ويخفون قلقا وحيرة لم تكن في الحسبان : لقد صار الاعمى الشخص الوحيد الذي يحفظ القرآن في البلدكله، وهو الوحيد الذي يمكنه ان يدخل الرحمة على قلوب الاموات ، خاصة ، غير انه فيما يبدو متواطىء مع الشيطان وربما مع عزرائيل نفسه ، لكنه لن يلبث أن يتحول ، فمنطق لقمة العيش غير منطق الاعمى ، وبمسلكه هذا لن يقطع سوى حبل رزقه . لقد كان منتظرا ان يتحول منذ زمن لكنه لم يتحول بعد ، بل انه يزداد صحة وعافية وعنادا ، ويزيد آياته اختصارا .

تصير الشمس دينارا ذهبيا ، لكن الاعمى لا يبصرها يمد يده اليها ، يتلمس الشعاع ، يصادف الهواء ، الهواء بارد منعش ، يمسكه ، يتبعه ، تسبقه عصاه ، يمضي ، يمر بالقوم ، يشم روائح حيوانية ،لا يهتم ، يمضي ولايقف، يعرف انه عما قريب سيقف ، وحين يقف تكون خيوط احلام بيضاء قد تسللت الى راسه وجعلته لا يشك ان اليوم الذي مر لم يكن كباقي الايام .

٢ ــ الأم

قالت الام : سيعالجك بالعفاريت .

قال الولد : العفاريت لا وجود لها .

ردت الام : انت صبي جاهل . كيف تنكر وجود العفاريت وقد رايتها بنفسي في دار الفقيه ؟

أجاب الولد : انت تخرفين .

احتجت الام : انت الذي تخرف . بعد قليل سترى ايها الولد الجاهل !

دخل الولد دار الفقيه يتبع الأم . رأى الدار معتمة ضيقة ليس بها سوى غرفة واحدة جلس الفقيه فيها مسندا ظهره الى الحائط ، يداعب دخانا باهتا يرتفع من كانون توشك جمراته ان تخمد ، ونساء كثيرات منطرحات على ظهورهن وجنوبهن ، مغشي عليهن ، تهتز صدورهن اهتزازا .

جلس الولد وهو يرى الأم تأخذ مكانها بين النساء وتتمدد ، وأخذ ينظر الى ما يحدث، وبدا ما يحدث غريبا : الفقيه يمسك بقضيب ، يضرب الارض ، يصرخ صرخة تقعد لها كل النساء ، يتمتم ، يهمهم ، يصرخ ثانية صرخة اهتزت لها النساء وشرعن يضربن رؤوسهن ويلتوين كأن أحبالا معقودة حول رقابهن. يتمتم، يهمهم . يصرخ ثالثة صرخة همدت بها كل النساء .

بحث الولد عن الأم فلم يرها ، خشي ان تكون قد خرجت وتركته ، شك في خروجها واقنع نفسه بأنها لا تزال في الغرفة ، وتخيلها منطرحة خلف امرأة او اكثر ، عاد ينظر الى ما يحدث ، وبدا ما يحدث غريبا: الفقيه يمد يده الى شعر امرأة يجذبها اليه فتنساق طائعة ، المرأة ليست سوى صبية ظهر وجهها رغم العتمة كتفاحة ناضجة ، انفتح ثوبها عند الصدر عن رمانتين صلبتين ، وانشق في الاسفل عن فخذين مدهونين بلون الزبد ، افترقا ثم التقيا في مكان نبتت فيه شجرة زيتون معرشة ، تنقض عليها غربان متوحشة تقفز من مكان جد قريب لتنشب مخالبها في القلب والوجه وتفجر دماء حارة صبغت العتمة بلون احمر واوقدت حرائق بلا دخان .

حدق الولد في شجرة الزيتون ، رآها تقف بباب كهف ملتهب اطل منه عفريت بحجم وشكل ثعبان ، انسل وسرعان ما اختفى لتختفي الشجرة بعده والفخذان بعد ذلك ، شعر الولد بالعفريت يتحرك بين فخذيه ، ينهشه، يقطر سما ، وبعيون كثيرة تنغرز في وجهه ، ذعر ، قام وانسل ، فتح الباب ، غمره ضوء قوي ، خطا خطوتين ووقف، التفت يمنة ويسرة ، رأى عفاريت تدب على رجلين تطارده ، التفت الى الخلف ، رأى وجه الام كبيرا بحجم الكون ، خجل ، رغب في الاختباء والهرب ، جرى ، صار يسمع اصواتا تلتف حول راسه وتقطر لعنة ، عثر ، سقط، تألم ، وسمع دبيب قدمين يعرفهما جيدا .

٣ ـ الأب

رفع بصره الى السماء ، بدت له كوجه طفل متسخ، اتكأ على حافة البلكون ، تساءل : كيف فاته ان يرى طلائع الغيم ، احس بقطرات مطر تتساقط متناثرة ، بريح غربية باردة تلاعب شعرات من راسه . مد بصره الى السطح المقابل ، الى غسيل يتأرجح ، ثم الى السطوح المترامية الى الافق لتحجب البحر . أجال بصره ، تخيل البحر ، البحر الذي يكون هائجا في مثل هذا الوقت ، شعر بالحزن ، باشياء اخرى غامضة تحركت في قرارة النفس ، قفزت من بينها رغبة تعلن عن نفسها ، في هذه اللحظة تتفتح النفس للغناء ، وللبكاء ايضا ، تمنى لو يمسك الان قيثارة او نايا فيعزف لحنا عميقا يفرج به عن آلاف العصافير المكبوتة في الاعماق . قفزت رغبة اخرى لم يدر كنهها جعلت كل الرغبات الممكنة تافهة. عاد يمعن في حبل الغسيل المقابل . في اقمصة قصيرة وسراويل نسائية شفافة ادرك انها لجارته . الجارة التي يشتهيها باستمرار ولا يعرف كيف يراودها ، تألم . انزل نظره الى الطريق ، على الطريق قصاصات ورق تتحرك ، ترسم دوائر فجائية حول نفسها ، رأى في مكان اخر وفي زمان آخر اوراقا كثيرة تتساقط ملأت خشخشتها الاذن بسرعة واختفت بسرعة وخلفتها غصة تمزق رئتي طفل ينزل من شجرة ويعدو هاربا يخفي فاكهة مسروقة . انتبه، سمع صوتا آتيا من الخلف ، صوت زوجته ، يتبعه صوت رقيق متفجر بالبكاء ، لم يشك في ان الزوجة قد ضربت طفلهما الوحيد . أرهف السمع ، سمع الطفل يستغيث، حن عليه ، اشتهى ان يضرب الزوجة ، تخيلها صريعة على الارض ، تخيل الطفل طريحا على الفراش محموما ، يجري هاربا . الطريق خالية لا احد يجري فيها . المطر ينهمر الآن ، أين يمكن ان يكون الناس في مثل هذه الساعة من الصباح ؟ ماذا يحدث لو وقفوا جميعا في الشرفات وفي وقت واحد ؟ الجميع في الفراش ، بعضهم عار ولا شك رغم البرد، اجسام بيضاء تختفي تحت الغطاء كما تختفي الشمس الآن ، مرت صور عارية لنساء عرفهن في حالات مختلفة ، محتمل ان يكون بعضهن او كلهن واقفات عند زوايا الطريق العام . انتبه ، سمع صوت الزوجة ، فهم انها تدعوه للدخول ، تحذره من البلل والحمى . احتج في نفسه : ما بال هذه المرأة لا تعرف غير الصراخ ؟ اصر الا يسمع ، أصر ان يرى فقط ، ان يرى شآبيب المطر تنزل عمودية الى الطريق تجرف قصاصات الورق ، تغسل اديم الاسفلت بعنف وطفلا في مكان آخر وفي وقت آخر يجري هاربا حافيا يرتعش ويشعر بحرارة على الخدين .

٤ ـ البحر

كانوا ثلاثة فوق الصخرة يواجهون صفحة زرقاء عليها بقع بيضاء متحركة ، وكان أسفل الصخرة امواج صغيرة تحاول التسلق فتفشل وتعيد الكرة فتفشل .

قال الاول وهو يرمي صنارته الى اعماق الزرقة : الاسماك تأكل الطعم وتهرب .

اضاف الثاني بغير مبالاة : انها تعرفنا جيدا .

عقب الثالث : الافضل ان نغير المكان .

ثبت الاول قصبته في حفرة على ظهر الصخرة وجلس ، وادخل الثاني يده الى جيبه واخرج سيجارة وبقي الثالث ينظر اليهما .

تكلم الاول : ولكن هذه الصخرة محجوبة عن الانظار.

نطق الثاني : المهم نحن هنا .

علق الثالث : ومع ذلك يجب الاحتياط .

تحركت البقع البيضاء على صفحة الماء . صارت طيورا فزعة تعبر الشاطىء ذهابا وايابا وترسل أصواتا مزعجة .

قال الاول : أكره هذه الطيور .

تابع الثاني : أنا أيضا . لست أدري لم تخاف ، كان لحمها يؤكل !

تدخل الثالث : المهم انها تخاف على نفسها .

انشغل الاول بفتح كيس وأخرج علبة سردين ثم زجاجة صفراء . وزاغت عين الثاني في مراوغة الماء لشعرة الصنارة . واهتم الثالث بالنظر الى الزجاجة والى الخلف .

قال الاول : انا جائع ، ومع هذا أفضل ان أشرب كأسا ، ما رايكما ؟

أجاب الثاني : أنا معك وان كنت غير جائع .

تكلم الثالث : اخشى ان يرانا أحد .

رد الاول : كأننا وحدنا نأكل في هذا الشهر المبارك .

اضاف الثاني : قل له كأنه لا يعلم .

اعتذر الثالث : لست أقصد شيئا .

أمال الاول الزجاجة على كأس على ظهر الصخرة ، صبّ قليلا ثم استوى واقفا يرفع الكأس الى شفته ، وقف الثاني يشعل سيجارته ويأخذ نفسا عميقا ثم ينفث حزمة من دخان ، وقف الثالث يمدّ يده الى القصبة يحاول تثبيتها اكثر .

تجرع الاول من الكأس . مال برأسه الى الخلف ورفع عقيرته يكبّر ويؤذّن . مدّ الثاني يده ليأخذ الكأس من يد الاول ، وبقي الثالث يعالج القصبة .

قال الاول : لو يصير هذا البحر خمرة صفراء !

تابع الثاني : نفرغ عليه ما في أعماقنا ، المسألة سهلة ، لنجرب !

قاطع الثالث : لن نمسك سمكة واحدة !

ضحك الاول وقال : أحقا جئنا لنصطاد سمكا ؟!

تساءل الثاني : وهل يأتي الناس الى البحر ليصطادوا سمكا ؟!

استغرب الثالث : اذن لم يأتون ؟!

مدّ الاول يده الى فتحة سرواله ، فكّ ازرارها ثم صار يتبول . مد الثاني يده الى فتحة سرواله وصار يتبول أيضا . ارتبك الثالث ووجد نفسه مرغما على التبول ، فك فتحة سرواله وصار يتبول . رفع الاول عينيه الى السماء ، السماء زرقاء وصافية . رمى الثاني بصره الى الافق ، الافق بعيد جدا . خفض الثالث راسه الى الصخرة : راى ثلاثة ظلال قصيرة ، بينها ظل قصير جدا ، توشك امواج صغيرة ان تغمرها بلون أصفر .

صدر حديثا :

الجبل الصغير

مجموعة قصص بقلم

الياس خوري

في خمس لوحات متكاملة ، ترسم مجموعة « الجبل الصغير » ، للكاتب اللبناني الياس خوري ، أفق رحلة لكتابة جديدة في القصة .

والحرب أو الموت ، كممارسة ابداعية من أجل تغيير العالم ، تنتقل الى موت في الكتابة نفسها وحرب في داخلها ، من أجل تغيير رؤيا العالم الذي يسقط ويعيد خلق نفسه في الثورة .

القصة هي نسيج لفعل تاريخي يمتد في علاقات الكتابة . لذلك تمتد القصة في القصص التي تأتي بعدها أو قبلها ، لتشكل عالما متكاملا يحاوله « الجبل الصغير » في بحثه عن الكتابة الجديدة .

منشورات دار الآداب